مجلة اكاديمية الجبل للعلوم الاجتماعية والانسانية
Al-Jabal Academy Journal of Social and Humanitarian Sciences
1 (1): 43-59, 2022
eISSN: 2958-5554; pISSN: 2958-5546
Journal Homepage: https://lajak.edu.ly/journals/index.php/aashs

ثُنائيّة الصِّراع في رواية "الفم" لإبراهيم الكوني (دراسة تحليليّة)

عوض عقيلة عوض حسين [1]

قسم الأدبيات، كلية اللغة العربية، جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية، البيضاء، ليبيا

DOI: https://doi.org/10.58309/aajshs.v1i1.4

المستخلص:

أصحاب القضايا في العمل الأدبي لا يعبهون إلاّ بقضاياهم التي وهبوا أقلامهم لها، وحتمًا أن هذا الذوبان والتفاني من أجل الوصول إلى مآربهم؛ يُبْرزُ في كتاباتهم علامة فارقة تميزهم عن غيرهم من الكُتاب. هذا ما تميّز به الروائي إبراهيم الكوني في مجاله، فالصراع في أدب الكوني ليس من السهل تجاهله، ففي كلّ رواية صراع يتفق أو يختلف مع صراع آخر في رواية أخرى، والصراع في رواية "الفم" (موضوع البحث) تنوع بين: صراع إنسان مع حيوان، وصراع إنسان مع إنسان، وصراع إنسان مع الصحراء، في ثنائيات مبثوثة في المتن الروائيّ.

الكلمات المفتاحية:

الصراع، الإنسان، الحيوان، والصحراء

Binary opposition in Ibrahim Al_koni,s The Well

Awad Aqeela Awad [1]

[1] Department of Literature, Faculty of Arabic Language, Al-Sayyid Muhammad bin Ali Al-Senussi Islamic University, Al-Bayda, Libya

ABSTRACT:

Writers of conviction focus only on those convictions to which they have dedicated themselves. Indeed, this devotion distinguishes them from other writers. This is what distinguishes the novelist Ibrahim Al-Koni. We cannot easily overlookConflict in Al-Koni's writing, as each novel contains similar or different types of conflict. Conflict in the novel, The Well, takes various forms: Man vs. Beast, Man vs. Man, Man vs. Desert, all spread in binaries within the text.

KEYWORDS:

Conflict, Man,

Beast, Desert

*Corresponding author: E-mail addresses: awad.husayn@ius.edu.ly

المقدّمة

الحديث عن الأدب عمومًا (شعرًا ونثرًا) حديث عن الإنسان، حديث عن كلّ ما يُحيط به في المكان الذي يحيا فيه، وعن العلاقات التي تربطه بالآخرين، ومن ضمن مسلمات علاقة هذا الإنسان بالآخرين وجود الصّراع بينهم، بأشكال مختلفة ومتعددة؛ لأن حياة الإنسان منذ أن وجد آدم عليه السّلام قُدِّر لها ألاّ تسير على نسق واحد، فالصراع إذن ملازم للإنسان، وهو أيضًا المحرك " الرئيس لكل حكاية، سواء كانت تروى على صفحة مطبوعة أو على منصة المسرح، أو على الشاشة الفضيّة، إنه عندئذ العنصر الذي يأسر حقيقة اهتمامنا ويضاعف حدة تجربتنا ويسرّع نبضاتنا ويتحدى عقولنا " [1]

ولأن العمل الأدبي السردي كالرواية مثلًا، يصور حياة الإنسان في بيئته، فثمة أقلامٌ اهتمت بتصوير هذا الصراع في أعمالها الروائية، من هؤلاء الروائي إبراهيم الكوني الذي اهتمّ اهتمامًا لافتًا بتصوير الصراع في رواياته، والحق أن الصراع في أدب إبراهيم الكوني يكاد يكون علامة بارزة في كتاباته، حيث إنّ الكاتب اختار الصحراء مسرحًا لرواياته، وحدد في غير رواية شخصياته وقضاياه والهدف الذي يرغب في تحقيقه، وقرّر أن يكون الصراع بين الشخصيات وفوق هذه البيئة الصحراوية هو الفيصل في حسم القضايا التي يريد معالجتها، وكل هذا يُقدّم في عمل سرديّ مشوق يأسر قارئه، وهو يتابع ما تتكشف عن الأحداث وصولًا لنهايتها.

ورواية " الفم" للكاتب إبراهيم الكوني لم تشذْ عن عالمه الصحراوي القائم على الصراع منذ اللحظات الأولى لانطلاق السرد، والصراع في الرواية قائم على الثنائية، وهذه الثنائيات اختلفت في مسمياتها واتفقت في وجود الصراع بينها، فالصراع تارةً بين: إنسان وحيوان، وتارةً بين إنسان وإنسان، وتارة بين الإنسان والصحراء، فالإنسان حاضر، والصراع: "من أهم العناصر المكونة للرواية على الخصوص، فهو أساسي وضروري ليكتمل بناؤها، فهو الذي يمنحها الحياة، ويبعث فيها الحركة، ويعمل على دفع الأحداث إلى النمو والتطور " [2]

وقد استقرّ الباحث على اختيار ثلاثة مباحث تقدم صور الصراع في رواية " الفم" مسبوقة بمقدمة وتنتهي بخاتمة ونتائج، والمباحث الثلاثة هي: الصراع بين الإنسان والحيوان، الصراع بين الإنسان والإنسان، والصراع بين الإنسان والصحراء.

© الباحث (الباحثون) هذا المقال مجاني يتم الوصول إليه من خلال رخصة المشاع الإبداعي (CC BY-NC 4.0)

أهمية البحث:

أنه يلتفت إلى اسم بارز في الأدب الليبي والعربي، له مؤلفات كثيرة، أجريت حولها دراسات عديدة في عالمنا العربي، وعلينا نحن البحاث الليبيين أن نهتم بإنتاجه؛ لأن أدبه يستحق الدراسة والبحث واكتشاف ما هو جديد في أدبه.

هدف البحث:

إثبات أن الصراع علامة بارزة في أدب إبراهيم الكوني، وأن رواية " الفم" (موضوع البحث) قد تجلى فيها الصراع بشكل واضح.

منهجيّة البحث:

اقتضت طبيعة البحث اختيار المنهج الوصفي التحليلي القائم على فحص النص الروائي، وتتبّع الحوار والسرد لتحديد مواطن الصراع وأنواعها وفق مباحث الدراسة.

الصِّراعُ في الرواية:

فهو: "عبارة عن حالة اجتماعيّة ناشئة عن اختلاف وجهات النظر وتعارضها حول أهداف ومعتقدات ومصالح معينة داخل بيئة ما "[3]

وهو أيضًا: "ظاهرة فنيّة، وهو الوقود الذي يتحرك به العمل الروائي، يحضر بقوة في كل الأعمال الروائية وهو أيضًا من ضمن أساسيات البناء السردي، وقوام الخطاب الروائي " [4]

وتأتي أهميّة الصراع في العمل الروائي من كونه: " ينفي عنه السياق الأحادي، الذي يجعل الحياة والعلاقات بين البشر تمشي وفق خطّ أحادي واحد، وهذا غير ما هو متوافر أصلًا، بل وينافي طبيعة الحياة وسنة الخلق " [5]

المبحث الأول: صراع الإنسان مع الحيوان:

استهل الكاتبُ روايته في قسمها الأول بهذا الصراع بين الإنسان والحيوان، وكأنه يُمهِّد للصراع القادم في القسمين التاليين، والصراع هنا جاء في قالب حواري بين الأب (بوبو) والابن (آمضال)، والحوار الخارجي الذي اختاره الكاتب: " يدور بين طرفين أو أكثر، ويُسمى الحوار المباشر. يعتبر من بين أخطر الصيغ الكلاميّة التي تكشف مقاصد المتحاورين وتُبين توجهاتهم المتباينة " [6]

والحوار بين الأب والابن يدور حول رسوم وجدت في مغارة حيث نزلت القافلة، يقول الراوي قبل أن يبدأ الحوار:" كانت قبيلة الصيادين تطارد حيوانًا مهيبًا متوجًا بقرنين هائلين يجري أمام جمع من الصيادين المسلحين بالسّهام خلف الحيوان عند الذيل، تركض بُهمة رسمت بلون أسود"[7]

فالصراع في هذا المشهد الذي رسم على الجدار صراع بين الحياة والموت، بين حيوان الودان والبهمة من طرف، والصيادين من طرف آخر، ومن ثمّ يشرع الأب في حوار مع ابنه ليشرح له ماهية الصراع وأسبابه، وأين يمكن أن ينتهي.

يقول الأب: "هكذا يصطاد أجدادك الودّان!"

- سيدركون البُهمة. الصيادون سيدركون البُهمة قريبًا!

تساءل الابن:

- أووووه... منْ أدراك أنهم سيدركون البهمة؟

الأب:

- ألم ترَ كيف تخلّفت عن الأم مسافة؟! إن الجبل مازال بعيدًا.
- أووووه... ومن أدراك أن الجبل مازال بعيدًا؟
- هذا ما لا يقوى على شرحه إلاّ صيادٌ " [8]

ما ينقل إلينا عبر هذا الحوار بين الأب وابنه صراع، فالودان يركض بحثاً عن الحياة، والصيادون يركضون وراءه بحثًا عن الطعام، والأب والابن ليسا طرفًا في الصراع، ودورهما يقتصر على نقله إلينا في قالب حواري.

وعن سبب هذا الصراع يقول الأب مفسرًا للابن: "يُقال: إن الصيادين لا يفعلون ذلك إلاّ إذا بكى الأولاد في البيوت.

- ولماذا يبكي الأولاد في البيوت؟
- إذا أغضبوا " آمناي " ولم ينحروا له الدّم يزفر أنفاسًا، ويُسلط القبلي على الصحراء. يهرب السحابُ، ويعمّ الجدبُ. تحترق السهولُ فتموت القطعانُ، فيحل في النجوع الجوع ولا يجد الأولاد وقتها ما يأكلون فيجوعون ويبكون"[9]

وعن نهاية هذا الصراع بين الودان والبُهمة والصيادين يقول الأب لابنه: "ستذهب إلى الجبل، وتحتمي بالصخور وستراقبهم وهم يسلخونها ويقسمون لحمها. ستحزن وستسقط من عينها دمعة كبيرة"[10]

© الباحث (الباحثون) هذا المقال مجاني يتم الوصول إليه من خلال رخصة المشاع الإبداعي (CC BY-NC 4.0)

هكذا انتهى هذا الصراع بين الإنسان والحيوان وإن كان على جدار مغارة فهو صراع حقيقي، نُقل إلينا عبر اللغة، فهي: "أحد أبرز المؤشرات القادرة على إظهار الصراع، وهي في الآن ذاته وسيلة للتعبير، والتفكير والاتصال، والإبلاغ. فإن الإنسان يستعين بها ليعبر عن ذاته وعن الآخرين... ويؤخذ من المظهر اللغوي تلك النصوص المعبرة، التي تنتمي إلى حقل الأدبية لقدرتها على كشف المكنون في النفس البشرية، كالشعر والرواية والقصة"[11]

صراع آخر بين الإنسان والحيوان، هذه المرة بين بوبو " الأب " وبين تيرزازت " الأرنب" الصراع أيضًا في القسم الأول من الرواية، لكنه يختلف عن سابقه كونه يستند إلى أسطورة تقول: " إنّ تيرزازت إذا ذكرت فجرًا أو عند الغسق حضرت في الحال وأفسدت كلّ شيء"[12]

والأسطورة هي: "رواية أفعال إله أو شبه إله لتفسير علاقة الإنسان بالكون أو بنظام اجتماعي بذاته أو عرف بعينه أو بيئة لها خصائص تنفرد بها"[13]

كالبيئة الصحراوية مثلًا، حيث يكثر فيها مثل هذه الأساطير، وفي روايات الكوني بشكل عام يكثر استعمال الأسطورة، فهي من ضمن ثوابت العمل الروائي للكاتب.

رغم هذه الأسطورة التي يؤمن بها قاطنو الصحراء إلاّ أن الابن "آمضال" ذهب أبعد من ذلك عندما أمسك بالأرنب بين يديه، وذكر اسمها ثلاث مرات، ما دفع الأب "بوبو" لأن يهرع إليه مسرعًا، ويأخذ منه الأرنب، ويرمي بها بعيدًا مرددًا تعويذة تقول: "أرانا المولى جنًا، ولا أرانا أرنبًا. ذكرنا اسم المولى ولم نذكر لها اسمًا"[14]

يقول الأب معاتبًا ابنه على فعلته ومؤكدًا حقيقة الصراع بين إنسان الصحراء والأرنب:

" – أوصيتك بألاّ تذكر لها اسمًا في الصباح، ولا تأتي لها على سيرة في المساء، فكيف خالفت الناموس وأخذت الجنية بين يديك؟

- كانت ترتعش كالمحمومة. تنكمش على نفسها كقنفذ فزع. كانت صغيرة مثل فأرة.. مسكينة كانت ترتعش..
- هذه المسكينة أفنت القبائل. هذه المسكينة ضلّلت أهل الصحراء. هذه المسكينة جاءتنا بنبأ البلاء. سوف ترى قريبًا ما ستجلبه على القافلة هذه الجنية التي أخذتها بين يديك"[15]

ولأن العدو الأبدي للإنسان في الصحراء هو القبلي، ولأن القافلة تعاني العطش حيث إن الدليل أضاع البئر، والماء يكاد ينفد، يأتي هذا الحوار بين الزعيم والعرّاف ليؤكد حقيقة أن تيرزازت تجلب الشؤم عند ذكرها صباحًا أو مساءً، فهي إذن في صراع مع أبناء الصحراء.

يقول العرّاف: " – تيرزازت اعترضت "بوب" عند الغسق!

- يُقال إن الطفل هو الذي عثر عليها نائمةً تحت نصب، فأخذها بين يديه!
- أخذها بين يديه؟
- لم يجبْ العرّاف. فأعاد الزعيم مستنكرًا:
- هل قلت: إن الولد أخذها بين يديه؟

ولكنّ العراف لم تعلق بالقمر. غزت مقلته كآبة وهو يتابع فجوة خفيّة في طرف القرص الفضي، فغاب تمامًا كما يفعل عندما يفكّ رمز النبوءة " (16)

هذا الحوار الثنائي بين الأب والابن تارة وبين الزعيم والعرّاف تارة أخرى يؤكد حقيقة أن ثمّة صراع بين تيرزازت والإنسان في الصحراء.

ينتهي هنا هذا الصراع بين الإنسان والحيوان ليبدأ صراع آخر.

المبحث الثاني: صراع الإنسان مع الإنسان:

الحديث عن صراع الإنسان والإنسان حديث عن شخصيات الرواية، عن الأفكار والمبادئ والقضايا التي تتبناها وتسعى لتحقيقها، وما دام حديثنا عن الصحراء كمكان تجري فيه أحداث رواية " الفم " فحتمًا أن أسباب هذا الصراع بين شخصيات الرواية على صلة وثيقة بهذا المكان، فأبرز هذه الصراعات جاءت بين الزعيم ودليل القافلة الذي تاه عن مكان البئر، وكيف أن الزعيم رأى في الأمر هلاكًا للقافلة؛ لأن ضياع بئر الماء يعني الموت المحقق، والحوار بينهما لابد أن يكون في مستوى الحدث.

وعبر تقنية الحوار بين الزعيم والدليل يتجسد هذا الصراع على ضياع النّصب.

يقول الدليل: " – النّصب. النّصب يا مولاي هو السبب!

- أطاح الزعيم بالممالك الغامضة التي أقامها على التراب. هبّ في وجه الدليل:
- النّصب! النّصب أخبرني أخيرًا: متى صارت الأنصاب دليلًا يهدي القوافل إلى أفواه الآبار؟
- ولكن أين يمكن أن يختفي نصب بذلك الحجم؟ كان في قامة مارد الجنّ، يقف على يمين الطريق مسافة فرسخ واحد، والبئر يليه على مسافة فرسخ آخر...
- لن أقبل هذه الحجّة من دليل. مازلت ترى النّصب المشؤوم دليلًا. فأين أنت من فراسة الدّليل؟
- لكنّ أرباب القوافل..

قاطعه الزعيم بصرامة:

© الباحث (الباحثون) هذا المقال مجاني يتم الوصول إليه من خلال رخصة المشاع الإبداعي (CC BY-NC 4.0)

- لو اتّخذ أرباب القوافل من أنصاب الحجارة علامات على أفواه البئر لأصاب أهل الصحراء فناءٌ منذ زمن بعيد، ولكن الأوائل كانوا يرون أفواه الآبار سرًا يخفونه عن العابرين، ويضيعون إليه كلّ أثر. ولا شك في أن عظامهم تتململ الآن في المدافن وهم يسمعونك تتحدث عن الأنصاب!
- الحق أن ضعف البصر في السنوات الأخيرة.
- قُلْ البصيرة! ليس ضعف البصر ما أصابك، ولكنه ضعف البصيرة، فاعترف بالحق يا – شقي! غدًا سوف أستكشف.. [17]
- غدًا يوم الظمأ. ألم تعلم أن زاد الماء نفد، والقبلي يتمادى؟

سكت العجوز. زفر أنفاسًا كفحيح الحيّة. صاح الزعيم:

- رميتنا للخطر! أنت رميت القافلة للخطر!" [18]

فالحوار هنا فضلًا عن تجسيده للصراع بين شخصيتين، شخصيّة الزعيم وشخصية الدليل، فإنه جاء موافق لكلّ شخصية من حيث دورها في الرواية، وهذا أساس في العمل الروائي عندما يتعلق الأمر بإقناع الآخر (المتلقي) وإن العمل متخيلٌ.

فالراوي مثلًا اختار قبل أن يبدأ الحوار بلحظات كلمة (هبّ) والكلمة تتوافق مع موقف الزعيم القوي الذي غضب وهبّ في وجه الدليل عندما تاه عن موضع البئر، فالحدث الذي من أجله غضب الزعيم يستحق هذه الهبّة في وجه الدليل، وفي الطرف الآخر جاءت كلمات الدليل لتؤكد أنه في موقف ضعيف نظرًا لعجزه عن الوصول للبئر.

فالمواءمة بين الشخصية والحوار الذي يصدر عنها بفعل العمل الروائي أمر مهم لنجاحه، حيث: "إن ارتباط الحدث بالشخصية والشخصية بالحدث يعني التفاعل بينهما، بحيث يقدم الكاتب من خلال الحدث أبرز سمات الشخصية في أبعادها المختلفة من فكر وانفعال ومعتقدات وسلوكيات، وطبائع وسجايا، إلى غير ذلك، كما يقدم الكاتب جذور الحدث والدوافع إليه وآثاره ونتائجه من خلال الأبعاد التي تظهر من سلوك الشخصية وتفكيرها، فلا يكون صدور الحدث من تلك الشخصية غير معقول، ولا غريباً عنه... "[19]

بعد أن عجز الدليل على الوصول بالقافلة للبئر، استقرّ رأي الزعيم والعرّاف على اللجوء إلى الجن؛ ليدلّهم على مكان البئر، وبسبب هذا الرأي اتفقا أن يُقدّم الابنُ " آمضال " قربانًا للجن، إذ لا يوجد في القافلة صبيٌّ سواه، وهذا ليس بالأمر الهيّن بالنسبة للأب " بوبو" وينتج عن هذا صراع بين الأب والعرّاف عندما يُصارحه بالأمر.

يقول الراوي بضمير الغائب والحديث عن العرّاف ممهدًا لهذا الحوار: " وقف على رأسه كشبح الجنّ: لم يجدْ بتحيّة المساء ولم يعلن عن قدومه بسعال العقلاء...

قام إليه وقف في مواجهته. في عينيه رأى كيف يطوف تسليم مخيف.

خاطبه أولًا:

- إذا صام العرّاف عن الكلام فلن يتأخر الخبر!
- يروق للعرّاف أن يسمع الناموس يتكلّم بشفتي رجل نبيل.
- ولكن أخشى أن يكون الرجل النبيل في فضول النساء عندما يتعلق الأمر بأبناء الخفاء!
- لن يعيب النبيل أن يتلهف لسماع أخبار الزمان التي يخفيها الخفاء..

ابتسم " بوبو" وهو ينحني إلى الأمام:

....

- أردتك على انفراد
- الحق أنني لم أجئك إلاّ رسولًا!
- رسولًا!
- نعم، جئتك رسولًا للناموس
- الناموس؟
- لولا الناموس لما تجاسرت أن أفاتحك في أمر يتعلق بابن وحيد!
- هل قلت الابن الوحيد؟ هل تعني " آمضال "؟

...

- الليلة اجتمعت مع الزعيم. بحثنا في أمر البلاء..وثمّ انتهينا إلى أننا لن ننجو بالقافلة إذا لم نحتكم إلى ناموس الأوائل.
- أنت تعرف ماذا يطلب " إيمي" إذا احتجب واختفى

سكت " بوبو" دحرج حجرًا كبيرًا بنعله الأيمن، فارتطم بالرسخ في رجله اليسرى. أصابه الألم بمسّ... قال:

- يُقال أن العرافين يقودون في المواقع صبايا لم يعرفن رجالًا. هل يأخذ " إيمي " إذا احتجب الصبايا قربانًا حقًّا؟
- نعم، لا يرضى " إيمي " بغير الأبكار، الصبايا أو.. أو الصبيان!
- الصبيان؟

© الباحث (الباحثون) هذا المقال مجاني يتم الوصول إليه من خلال رخصة المشاع الإبداعي (CC BY-NC 4.0)

سكت العرّاف. استنكر بوبو" [20]

هنا يبدأ الصراع بين العرّاف وبوبو، حيث يرغب العرّاف في الحصول على موافقة بوبو بأن يقدم ابنه الوحيد لـ" إيمي"، وبوبو يحاول التنصّل من الأمر؛ لأنه سيفقد ابنًا وحيدًا.

يقول " بوبو": " – لم أسمعْ بهذا من قبل. الصبيان؟يا له من عجب!

- بل الأعوان يُفضِّلون الصبيان على الصبايا!

توقف بوبو فجأةً. التفت إلى العراف الذي توقف أيضًا. حدّق فيه بعينين غريبتين. غزاهما بياض شامل حتى اختفى السواد تمامًا. ثم احتقنتا باحمرار مفاجئ. حدّق في العرّاف طويلًا. ثمّ ألقى برأسه إلى أسفل وغمغم:

- ولكنّني لم أنجب سواه.
- فقد أمّه منذ سنتين فرأيت أن ألحقه بالقبيلة

...

- أنا أعرف. الزعيم يعرف أيضًا، ولكنّ الناموس..
- هل يرضيكما أن تأخذوه مني لتعطوه لـ " إيمي " البشع؟
- إيمي بشع ومظلم، ولكن ماذا نفعل إذا كانت الحيّة المسمومة هي التي تقف حرسًا على النبع، وهي التي تمنح الحياة.

...

- ألن يستطيع العرّاف الجليل أن يتدخل لإقناع الزعيم
- قلت لك: إن الناموس هو الذي أعطى ابنك لـ " إيمي " وليس الزعيم.
- ولكنّه وحيد، ولم يكتب لي أن أنجب سواه.

هدّده العرّاف بسبابته:

- إياك أن تستهين بالناموس. من خالف الوصايا تنكرت له الصحراء فاحترس!"[21]

بهذا التحذير ينتهي هذا الصراع بين بوبو والعرّاف، حيث يبحث العرّاف عن مصلحة جماعيّة ممثلة في القافلة وما يمكن أن تتعرض له في حال فشله في المهمّة، وبين " بوبو" الذي يتمسك بحقّه في إنقاذ ابنه من تقديمه قربانًا، وبين هذا وذاك يبدّل حال المتن الحكائي للرواية، فيمكن وصف تطور المتن الحكائي بأنه أشبه بمرورٍ من وضعيّة إلى أخرى لاتصاف كل وضعيّة بصراع المصالح أو بالصراع بين الشخصيات. إن التطور الجدلي للمتن الحكائي هو نظير تطور السيرورة الاجتماعيّة كنتيجة لصراع الطبقات الاجتماعيّة[22]

في القسم الثاني من رواية " الفم " يتجسد صراعٌ آخر، يؤكد أن إصرار ابن الصحراء على البقاء رغم قسوة الظروف التي يمرّ بها، أن عليه أن يستعد لصراعات أخرى لا حصر لها.

المبحث الثالث: صِراع الإنسان مع الصحراء:

في هذا الصراع يعود بنا الراوي إلى الوراء ليبين لنا كيف قرّر " بوبو" ترك الصحراء من هول ما رأى من موت لم يسلم منه كبير ولا صغير، فالحيوان يدفع ثمن بقائه في الصحراء، والأم تتخلي عن ابنها مرغمة؛ لأنها ستعجز عن حمايته من الموت القادم لا محالة.

فالصرع هنا صراع مع الجوع والعطش والشمس الحارقة، صراع مع مناخ الصحراء عندما يغضب، وفي ثنايا هذا الصراع الخارجي المعلن، ثمة صراع داخليّ خفي بين الإنسان ونفسه؛ لأن من يقرر ترك الصحراء سيكون عرضة للسخرية والتهكم، وهو عار لن يطال منْ يتخلّى وحده بل سيطال أجيالًا وأجيال، وهذا الأمر بشكل خاص يسعى الروائي إبراهيم الكوني لتأكيده ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

والصراع هُنا مختلف عمّ قبله، حيث جاء عبر تقنية السرد، وربما سبب اختيار السرد أن أحد طرفي الصراع هي الصحراء، وما فيها من قوى تقهر الإنسان وتُجبره على التخلي.

يُروى صراع الإنسان مع الصحراء على لسان الراوي أولًا، ويبدو أن ضحايا هذا الصراع كُثُر، لكنّنا لا ننظر إلى هذا التعدد على أن ضحاياه أكثر من طرف واحد بالنسبة للثنائية، ونعدّهم طرفًا واحدًا فهم إجمالًا قاطنو الصحراء، وما يحدث لهم نظرًا لوجودهم في هذه البيئة الصحراوية القاسية، والراوي يختار الحديث بضمير الغائب، والمراد هنا هو " بوبو" وكيف أنه كان شاهدًا على مآسٍ حدثت أثناء وجوده، ما دفعه لترك الصحراء واللجوء إلى الواحة.

يقول: " نزل الواحة بعد جدب السنين السبع. احتمل الأهوال والفواجع في السنوات الأولى. دفن الأبوين في السنة الأولى، وهلكت القطعان في السنة الثانية، وبدأ الاحتجاب في السنة الثالثة، ورأى آباء يدفنون أبناءهم أحياء خوفًا من العار، وتجنبًا للمجاعة، كما رأى رجالًا يحبسون كل أفراد العائلة في الخباء، ولا يخرجون من هناك إلاّ إلى المدافن. بدأت القبيلة تتشتت وتهاجر إلى فجاج الصحراء الأربع، ولكن الأكابر عاندوا البلاء، وتشبثوا بالبقاء في أرض اليباب لحماية القبيلة من أهوال الزوال. صمد أيضًا طوال الأعوام الأولى، ولكنه لم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل عندما رأى أمًا تهرع إلى قافلة سائرة إلى بلدان الشمال، وتُسلم ربّ القافلة ابنها الوحيد ليأخذه إلى وطنه عبدًا مقابل أن يطعمه من جوع... بعدها أقسم ألاّ يبقى في المنتجع يومًا واحدًا"[23]

© الباحث (الباحثون) هذا المقال مجاني يتم الوصول إليه من خلال رخصة المشاع الإبداعي (CC BY-NC 4.0)

قرّر "بوبو" إذن ترك الصحراء ظنًا منه أنه سينعم بالراحة والطمأنينة في الواحة، ويتبين بعد وقت أن " بوبو" كان مخطئًا.

يقول الراوي: " سرّج المهري، وربط في ذيله النوق العجاف التي عافها الجدب، وانطلق جنوبًا ما إن تبدّى القبس الأول. نزل الوادي الأول الذي يفصل المضارب عن سهول الجنوب فخرجت له الشاعرة من الأحراش كجنيّة لاحقته بموال العار وهي تعزفه لحنًا على " إمزاد" سمع أشعارًا فاجعة تصف كيف هزم الخبزُ فارس القبيلة النبيل، ففرّ إلى الواحات ليستبدل المهري الأصيل بالحمار الأبله، والسيف الذي جلب له الصيت في الغزوات بفأس الحقل، والسرج المنمنم برموز العشق بالبردعة المحبوكة من مسد النخيل القبيح، مشت وراءه طويلًا، ولم يتخلص من شبحها إلاّ بعد أن مسّد بدن المهري بالسوط فانطلق. هرب من الشبح ذلك اليوم، ولكنه لم يستطع أن يهرب من اللحن الأليم. ظلت المعزوفة تتردد في أذنيه طوال النهار، وفي الليل عندما توقف ليبيت ليلة في واد مزحوم بأحراش ميتة، تمادى اللحن وسمع الصحراء كلها تتغنى بالمعزوفة. لم ينم ليلتها، بل لم ينم حتى بلغ الواحة "[24]

ما بدأته الشاعرة أو الجنيّة تكفلّت الصحراءُ بإتمامه، فقد سمع الصحراء كلها تتغنى بالمعزوفة، فصراعه هنا صراع مع الصحراء التي استبدلها بالواحة، وفي قوله في الفقرة الأولى (سرّج المهري وربط في ذيله النوق العجاف التي عافها غول الجدب) دليل يؤكد أن الصراع هنا مع الصحراء، فالجدب بفعل القبلي، والقبلي ابن الصحراء المدلل، ولم يسلم منه هنا إنسان ولا حيوان.

بعد أن استقرّ " بوبو" في الواحة، واتجه إلى السوق وباع النوق أولًا، واشترى أرضًا بجوار النبع، ومزّق جسد الأرض بالمحراث، ظهرت له الصبيّة الحسناء.

سيتزوج " بوبو" من الصبية بعد حين، ولكنّ هذا لا يهمنا بقدر ما يهمنا ما جاء من حديث عن أبيها الذي يبدو أنه تخلّى في زمن مضى عن الصحراء كما فعل " بوبو" الآن.

يقول الراوي متحدثًا بضمير الغائب والمراد هنا " بوبو": "عرف فيما بعد أن الصبيّة ترجع بأصولها إلى الصحراء تخلى أبوها عن الصحراء في زمن المجاعات القديمة، واستقرّ في الواحة... ويُروى في الواحة أن الأب قاوم الحنين طويلًا جدًا.. فكان يصعد التلال الرملية المفتوحة على الخلاء... ولكنّ الحنين غلب أخيرًا ففرّ إلى الصحراء. ويتحدث الرواة كيف وجد صبيانًا يرعون الجداء على مشارف المضارب، فسألهم عما إذا كانوا يعرفون شيئًا عن رجل يُدعى " أزّال" ترك القبيلة زمن المحنة، وهرب إلى الواحات. هنا فوجئ بالصبيان يتنافسون في إلقاء قصيدة لئيمة تتحدث

أبياتها عن فارس كان بطلًا نبيلًا، ولكن غلبته بطنه عندما أصاب الصحراء أول بلاء، فهانت عليه القبيلة، وتخلى عن الوطن، وهرب إلى أرض العبيد، ليأكل خبزًا من أيديهم الملوثة بالذل والأوحال. عاد " أزّال" على عقبيه قبل أن يبلغ النجع، ولكنه استمر يصعد السيوف الرملية المفتوحة على الخلاء كل مساء، ليغني هناك ألحان الحنين " [25]

فالكوني هنا يُدين كلّ من يتخلّى عن الصحراء تحت أيّ ذريعة، ويحذِّره من العار الذي سيلاحقه وسيحفظه حتى الصبيان، فضلًا عن الصراع الداخلي الذي سيقطّع أوصاله، وما مرّ بنا هنا مع " أزّال" صراع صريح، وربما هو تمهيد لما سيحدث مع " بوبو" في ثنايا هذه الرواية التي تنتصر للصحراء على ما عداها، رغم قسوتها على الإنسان والحيوان!

بعد عدّة عناوين احتواها القسم الثاني من الرواية نصل إلى نهاية القسم الثاني، لنعلم ماذا حلّ بـ "بوبو" بعد أن قضى وقتًا في الواحة، تزوج ورزق بولد " آمضال" وفقد زوجته، يقول الراوي بضمير الغائب متحدثًا عن " بوبو": " زار الزعيم طلبًا للمشورة، وجده يعتصم بظلال الخباء فرارًا من شمس الأصيل. بدأ الزعيم تحدّث عن مزاج الصحراء، وأحوال الطقس، كما يليق بزعيم. ثمّ استعار وصايا من الناموس عندما جاء على ذكر الكيد، كيد الخلق، وكيد الزمان، وكيد الغيب إذا نوى أن ينزل على الأرض البلاء. توقف عند الجدب. ودفن يديه في الأرض بمجرد أن جاء على ذكره اللسان. ثم حمل عليه طويلًا وقال: إنه أسوأ من الوباء لأن الوباء يأخذ أبناء القبيلة ليرقدوا إلى جوار أسلافهم، أما الجدب فيذهب بهم بعيدًا ليصيروا عبيدًا في الواحات. تململ " بوبو". تابع أصابع الزعيم وهي تحرث التراب بأصابعه، ليحفر شواهد خفيّة لا يتقن صنعها إلاّ الأكابر. قال:

- الحق أنني لم أجيء إلاّ لإصلاح أمر لم يكن لي في صنعه نصيب.

يروق للزعيم أن يسمع ما فعلته أرض الواحة بسليل القبيلة النبيل

- أردت أن أعيد للقبيلة ذريّة القبيلة!
- هل قلت: إنك تنوي أن تعيد للقبيلة نسلًا كان للقبيلة أم أن كيد الزمان قد أصاب فيَّ السمع؟
- كيد الزمان لم يصب في مولاي سمعه أبدًا

...

- لم أخرج إلاّ عندما رأيت الأمهات يضعن الأبناء في أيدي تجار القوافل، فغلبني هم لم أجد لدفعه حيلة.
- لم نجيء إلى الصحراء إلاّ لنغالب الهمّ وراء الهمّ

© الباحث (الباحثون) هذا المقال مجاني يتم الوصول إليه من خلال رخصة المشاع الإبداعي (CC BY-NC 4.0)

...

- ولكن لم أعد أستطيب حياة الواحات، في صدري نداء يا مولاي!

...

- أعترفُ لك أيضًا أنني لم أعد أطيق البقاء نداء الصحراء غلب أخيرً "[26]

يقول الراوي بضمير الغائب والحديث عن " بوبو": اشترى عددًا من الإبل، والتحق بالقبيلة.

زار المقابر، وطاف أوطانًا عرفها قبل حلول البلاء، ورأى ما فعله بها البلاء"[27]

هكذا إذن انتصر نداء الصحراء في صدره، عاد إلى أصله ومعه ابن الواحة " آمضال " الابن الذي اتفق الزعيم والعرّاف على أن يقدماه لـ " إيمي" حتى تهتدي القافلة إلى البئر، وبالعودة للقسم الأول الذي انتهى عند طلب الابن قربانًا، يقدّم " بوبو" ابنه " آمضال " في القسم الثالث والأخير من الرواية.

يقول الراوي: " في الصباح أعطاه نصيبه من جرعة الماء، وألبسه ثوبًا جديدًا من الكتان الناصع. قاده غربًا، نحو الطلحة التي يحتمي بها العرّاف. وجده يقف على بعد خطوات من الأمتعة، ثابتًا كجلمود، يرفع رأسه الملفوف بالسواد إلى شعفة الجبل... رفع صوته بالسعال فالتفت العرّاف. في عينيه رأى كآبة، وقرأ النبوءة، وضع يد الابن في يده، تراجع خطوات. أسبل العرّاف جفنيه وأومأ له بعمامته... كان جمع العبيد والرعاة قد أزاحوا لوحًا حجريًا كبيرًا عن الفوهة، وبدأوا يعدون الحبل والدّلو. بجوار اللوح تمدد الوليد" [28]

وبعد أن اهتدت القافلة إلى البئر، وكيف مرّ بنا للوصول إلى هذه النهاية أكثر من صراع خارجي، كان الإنسان فيه طرفًا ثابتًا، فثمّة من يرى " أن كل عمل روائي هو بالضرورة يجسد الصراع بين الذات والمجتمع، وبقدر ما يكون أسلوب السرد قادرًا على ترجمة هذا الصراع، بقدر ما يقترب العمل الروائي من مرحلة النضج، ويمتلك القدرة على التأثير"[29]

الخاتمة

حاول البحث تتبع الصِّراع في رواية " الفم " حيث بدأ هذا الصراع مع انطلاق السرد في القسم الأول من الرواية، وما بدا للباحث أن الصراع تنوع بين ثلاثة أنواع: صراع الإنسان مع الحيوان، وصراع الإنسان مع الإنسان، وصراع الإنسان مع الصحراء، وأن أهم النتائج التي خلص إليها البحث هي:

1 – أن الصراع في رواية " الفم " حاضر في أقسام الرواية الثلاثة.

2 – أن الروائي إبراهيم الكوني يوازن في هذه الرواية بين ضرورة التمسك بالهويّة الصحراوية رغم قسوتها، وأن أيَّ هروب من هذه البيئة تحت أيِّ ذريعة هو عارٌ سيلاحق صاحبه جيلًا بعد جيل.

3 – جُلّ الصراع في الرواية كان خارجيًا والقليل كان داخليًا.

4 – أن الصراع في الرواية نُقل إلينا عبر تقنيات: الحوار والسرد والوقفات الوصفيّة.

5 – أن الكاتب لجأ في روايته لاستخدام ضمير الغائب؛ لينأى بنفسه عن أفعال الشخصيات، حيث اكتفى بدور الراوي الذي ينقل ما يشاهده دون تدخل مباشر في أحداث الرواية.

6 – أن رواية " الفم " اتفقت مع روايات الكوني في استخدام شخصيات ثابتة تكاد تتكرر في كل رواية، وأنها اختلفت فقط في الدور المسند إليها في كل رواية مثل: الزعيم، العرّاف، الدليل، والبطل.

© الباحث (الباحثون) هذا المقال مجاني يتم الوصول إليه من خلال رخصة المشاع الإبداعي (CC BY-NC 4.0)

الهوامش

[1] – جوزيف.م.يوجز. ترجمة: وداد عبد الله، الهيئة العامة للكتاب، مصر، 2005، ص 60

[2] – أحمد موساوي، أبعاد الصراع وامتداداته في أدب نجيب الكيلاني، مكتبة الآداب، ط1، 2009، ص 18

[3] – إيمان قارة،الصراع الأيديولوجي في رواية " في الظلام " لنجيب كيلاني، 2015م، رسالة ماجستير، ص 7

[4] – شمار ابتسام، الصراع في رواية " وبدأ الظلام" لعمرو المنوفي، جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر، رسالة ماجستير، 2019، ص 11

[5] – حنا مينه، القصة والدلالات الفكرية، مؤسسة اليمامة للصحافة، مارس 2000، العدد 76، ص 106

[6] – الجيلاني الغرابي، عناصر السرد الروائي، رواية " السّيل" لأحمد توفيق أنموذجًا، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2016، ص 59.

[7] – إبراهيم الكوني، رواية " الفم" الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط1، 1425، ص 11

[8] – إبراهيم الكوني، رواية " الفم " ص 11،12

[9] – المصدر نفسه، ص 14

[10] – المصدر نفسه، ص 13

[11] – مجلة آداب الحُديدة، العدد الثالث، 2013، ص 156

[12] – إبراهيم الكوني، رواية " الفم " ص 12

[13] – نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، 2001م، ص 11

[14] – إبراهيم الكوني، رواية " الفم" ص 20

[15] – المصدر نفسه، ص 20 وما بعدها

[16] – إبراهيم الكوني، رواية " الفم" ص 24

[17] – إبراهيم الكوني رواية " الفم " ص 20

[18] – المصدر نفسه، ص 21 وما بعدها

[19] – نادر أحمد عبد الخالق، الشخصيّة الروائية بين: علي أحمد باكثير ونجيب الكيلاني، القاهرة، دار العلم والإيمان،ط1، 2010، ص 270

[20] – إبراهيم الكوني، رواية " الفم " ص، 38،39

[21] – إبراهيم الكوني، رواية " الفم " ص، 39 ، 40

[22] – ترجمة (إبراهيم الخطيب)، نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، 1982م ص 185.

[23] – إبراهيم الكوني، رواية " الفم " ص 43. 44

[24] – المصدر نفسه، ص 45.46

[25] – إبراهيم الكوني، رواية " الفم" ص 48

[26] – إبراهيم الكوني، رواية " الفم "، ص 91 وما بعدها

[27] – المصدر نفسه، ص 96. 97

[28]– إبراهيم الكوني، رواية " الفم " ص 109

[29] – فضيلة درّوش، سوسيولوجيا الأدب والرواية، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، 2013م، ص 203

© الباحث (الباحثون) هذا المقال مجاني يتم الوصول إليه من خلال رخصة المشاع الإبداعي (CC BY-NC 4.0)

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا المصادر:

1 – إبراهيم الكوني، رواية " الفم" الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان،1425م.

ثانيًا المراجع:

1 – إبراهيم الخطيب، نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، 1982م

2 – أحمد موساوي، أبعاد الصراع وامتداداته في أدب نجيب الكيلاني، مكتبة الآداب، ط1، 2009.

3 – إيمان قارة،الصراع الأيديولوجي في رواية " في الظلام " لنجيب كيلاني، 2015م، رسالة ماجستير.

4 – جوزيف .م.يوجز . ترجمة: وداد عبد الله، الهيئة العامة للكتاب، مصر، 2005.

5 – الجيلاني الغرابي، عناصر السرد الروائي، رواية " السّيل" لأحمد توفيق أنموذجًا، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2016.

6 – شمار إبتسام، الصراع في رواية " وبدأ الظلام" لعمرو المنوفي، جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر، رسالة ماجستير، 2019،

7 – نادر أحمد عبد الخالق، الشخصيّة الروائية بين: علي أحمد باكثير ونجيب الكيلاني، القاهرة، دار العلم والإيمان،ط1، 2010.

8 – نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، 2001م.

9 – فضيلة درّوش، سوسيولوجيا الأدب والرواية، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، 2013م.

ثالثًا الدوريات:

1 – حنا مينه، القصة والدلالات الفكرية، مؤسسة اليمامة للصحافة، مارس 2000، العدد76.

2 – مجلة آداب الحُديدة، العدد الثالث، 2013.